تحقيق النصوص عند رواة اللغة والشعر

أ/عياشي ريح
جامعة الجلفة

السؤال الذي يمكن أن نطرحه في بداية الأمر هو : هل استخدم العرب القدماء كلمة التحقيق بمدلولها الحالي في العصر الحديث؟، وهل اهتدوا إليه كعلم مستقل؟ .

إن كان الهدف من التحقيق في العصر الحديث هو رد المخطوط إلى الصورة التي أصدرها مؤلفه عليها.وذلك بتتبع ما تقع عليه اليد من نسخ لهذا المخطوط .

فكيف اهتدى القدماء إلى التحقق من صحة النصوص ؟

قبل التدوين كانت الرواية الشفوية تنتقل من راو إلى آخر وبها كان الاعتماد على الراوي الموثوق في روايته هو المصدر الصحيح للنص الصحيح.

وقد كان كثير من المؤلفين يملون مؤلفاتهم على تلاميذهم أو يطلبون إلى النابهين منهم أن يعرضوها عليهم– إما من ذاكرتهم أو من مدوناتهم– وبقية التلاميذ يسمعون وطبيعي أن تتفاوت قدرات هؤلاء التلاميذ عندما يروون ما أخذوه من شيوخهم عن هذا الطريق.

قال السيوطي: " أملى ابن دريد الجمهرة في فارس، ثم أملاها بالبصرة وبغداد من حفظه، ولم يستعن عليها بالنظرة في شيء من الكتب إلا في الهمزة واللفيف. فلذلك تختلف النسخ .والنسخة المعوّل عليها

هي الأخيرة. " (1)

وروي السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق خمسة عشر تلميذاً. أما عبد الملك بن هشام الذي اختصرها فاعتمد على رواية سلمة بن الفضل، واعتمد ابن الأثير في (أسد الغابة) على رواية يونس بن بكير(2).

وفي الشعر كانت العرب في العصر الجاهلي تعتمد في نقل أشعارها على المشافهة مما كان لها أثر بالغ في جعل موضوع الرواية والرواة العصب الأساس الذي ارتكزت عليه القراءات الحديثة في كثير من الإشكالات التي أُثيرت حول الشعر الجاهلي ، ولم يُلتفت إلى تدوينه إلا في العصر الأموي مع انتقال العرب من طور الثقافة الشفهية إلى طور الاهتمام بالتدوين والكتابة كآلية لحفظ أصول الدين، وأصول اللغة العربية بما فيها الشعر الجاهلي بوصفه أحد الأصول الأساسية لهذه اللغة، ، لذا كان لزاماً على الرواة أن يبادروا إلى تدوينه في قراطيس تحفظه من تلاعب عوامل الدهر بعد أن لبث أمداً طويلاً يعتمد في نقله على الرواية الشفهية.

انبرت كثير من المقاربات للبحث عن مصادر الشعر الجاهلي، هادفةً إلى تجلية الحقيقة من حول هذا الشعر، ومن القراءات الرائدة في ذلك دراسة ناصر الدين الأسد التي وسمها بـ "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية"، فخاض فيها الدروب الوعرة في قضايا تدوين هذا الشعر وفق منهج استقصائي واضح المعالم

فالمنهج العلميُّ الرصين في تحقيق مصادر صحة الشعر الجاهلي جعل القراءة التاريخية العربية الحديثة تبحث في الوسائل التي اعْتُمِدَ عليها في نقل هذا الشعر، حتى كُتِب ودُوِّنَ، فأثارت قضية الرواية والرواة حيث خصص ناصر الدين الأسد فصلاً كاملاً في مؤلفه لهذه المسألة سماه " الرواية والسماع".

وشكل السماع أساساً للرواية عند العرب قبل ظهور التدوين، وذلك ما راحت تبحث فيه القراءة العربية الحديثة، فاعتبرت الرواية المتصلة من الجاهلية حتى القرن الثاني الهجري لم يشبها تقطيع أو انقطـاع؛ إذ ((أن رواية الجاهلية: أشعارها وأخبارها، لم تنقطع منذ الجاهلية، بل لقد اتصلت في زمن رسول الله)صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين، واستمرت طوال القرن الأول حتى تسلمها العلماء الرواة من رجال القرن الثاني، ولم تكن ثمة فجوة تفصل هؤلاء الرواة العلماء عن العصر الجاهلي، وإنما تلقفوه عمن تقدمهم، وورثوه عمن سبقهم، رواية متصلة، وسلسلة محكمة ، يأخذها الخلف عن السلف، ويرويها الجيل بعد الجيل، حريصين عليها معنيين بها

حُوفظ على اتصال الرواية الشفهية من حقبة زمنية إلى أخرى، بحيث كانت في العصر الجاهلي وعلى زمن الرسول (صلى الله علية وسلم) والخلفاء الراشدين وطِوَال الفترة الأمية

كما أن دواوين الشعر خاصة إذا كانت لها روايات متعددة ومتغايرة إلى درجة جعلت الدارسين يثقون في بعضها ويشكون في بعضها .فديوان امرئ القيس الذي حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، عثر منه على ما يلي من النسخ التي كشفت عن رواتها.

1-نسخة الأعلم الشنتمري(أبي الحجاج يوسف بن سليمان) وتحتوي على 28 قصيدة ومقطوعة من رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي، و 6 قصائد من رواية المفضل وأبي عمرو الشيباني وغيرهما.

2-نسخة الطوسي (أبي الحسن على بن عبد الله) وتنقسم إلى ثلاثة أقسام يشتمل القسم الأول على 42 قصيدة ، وروى معظمها ابن الأعرابي عن المفضل الضبي .ويشتمل القسم الثاني على سبع قصائد من رواية الأصمعي وأبي عبيدة ومقطوعة مجهولة الجامع والراوي. وقد رجع المحقق إلى عدة نسخ أخرى لم تكشف عنه رواتها تفصيلاً كما فعلت هاتان النسختان(3)

أما الدكتورة عائشة بعد الرحمن في تحقيقها ل (مقدمة ابن صلاح)تذكر أن المؤلف فرغ من تصنيف كتابه في يوم الجمعة آخر المحرم لسنة أربع وثلاثين وستمائة، وسرعان ما التفّ حوله التلاميذ يروونه عنه، وكان

منهم تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الحموي الشافعي الذي قرأه عليه بالمدرسة الروحية بعد الفراغ منه بسنتين فقط (4).

وكان الراوي أبو محلم الشيباني توفي سنة (248) هـ قيل إنه صاحب السبعين في عصره قيل إنه لما قدم مكة لزم ابن عيينة فقال له يوما يا فتى أراك حسن الملازمة والاستماع ولا أراك تحظى من ذاك بشيء قال أبو محلم قلت وكيف؟ قال لأني لا أراك تكتب شيئا مما يمر. قلت أني أحفظه. قال كل ما حدثت به حفظته؟ قلت نعم. فأخذ دفتر طالب بين يديه وقال أعد عليّ ما حدثت به اليوم. فأعدته فما خرمت حرفا فأخذ مجلسا آخر من مجالسه فأمررته عليه. فأورد حديث السبعين من ابن عباس وضرب بيده على جنبي وقال أراك صاحب السبعين.

من نوادر أبي محلم في الحفظ أن أمير المؤمنين الواثق باللّه سأله يوما عن شاهد من الشعر فيه كلمة المرت، (المرت هو الخلاء الذي لا نبات فيه)، فما فكر طويلا حتى أنشد بعض الحاضرين بيتا فيه كلمة المرت. فضحك أبو محلم ثم قال للذي أنشده ربما بعد الشيء عن الإنسان وهو أقرب إليه مما في كمه. فلا تبرح حتى أنشدك فأنشده للعرب مائة بيت معروف لشاعر معروف في كل بيت منها ذكر المرت.

وقيل كان بندار بن عبد الحميد وهو من رجال القرن الثالث لا يغيب عنه من شعر الجاهلية والإسلام إلاّ النزر القليل وذكروا أنه كان يحفظ سبعمائة قصيدة أول كل منها «بانت سعاد.«

وكان ابن دريد المتوفي سنة (321) هـ أحفظ الناس للشعر وأوسعهم علما باللغة فكانت تقرأ عليه مجاميع الأشعار فيسابق إلى إتمامها.

وروي أن أبا بكر الأنباري المتوفي سنة (317) هـ كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهدا في القرآن، وكان لا يملي في درسه إلا من حفظه.

ومن أعجب ما سمع عنه أن امرأة سألته يوما عن شيء في الرؤيا وكان لا يعرف التعبير. فادعى أنه حاقن «أي محصور» ومضى فحفظ كتاب الكرماني وجاء من الغد متصدرا لتعبير الرؤيا.

كيفية تأدية الرواة علمهم كان الرواة يؤدون ما لديهم لسواهم بأربعة أساليب.

1/ الإملاء وهي أعلى أساليبهم وذلك أن يملي الراوي على طلبته بعض ما عنده في مجالس متعددة فيكتب المستملي في أول الصحيفة هذا مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ثم يورد المملي بإسناده كلاما عن العرب فيه غريب من اللغة يحتاج إلى تفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يرى أن فيه فائدة لطلبته.

وكان آخر من سار على هذه الطريقة في إملاء العلم أبو السعادات بن الشجري المتوفي سنة (542) هـ وهو صاحب كتاب الأمالي في علم الأدب.

2/ الإفتاء في اللغة وهي إجابة العالم باللغة عما يسأل عنه منها.

3/ الرواية وهي أن يروي ما عنده رواية بلا إملاء.

4/ التعليم هو أن يعلم ما لديه لبعض الطلبة على أي أسلوب

من أين استقى الرواة علمهم؟ كان أهل البصرة والكوفة عربا في القرن الأول وكان منهم موالي اشتغلوا بالعربية وبرعوا فيها فكان الرواة يسمعون اللغة عن العرب ثم يروونها ولكن لما اختلط العرب بسواهم من أهل اللحن رأى رواة اللغة أن لا مناص من الرحلة إلى صميم بلاد العرب ليصادفوا الأعراب الجفاة الأقحاح الذين لم يسمعوا اللحن ولم يجر لسانهم به فكانوا يأخذون عنهم اللغة في سنين ثم يعودون فيزيدون ما سمعوه من كلام العرب وأخبارهم.

أقدم من عرفناه ممن رحل إلى البادية يونس بن حبيب الضبي المتوفي سنة (183) هـ وخلف الأحمر المتوفي سنة (180) هـ والخليل بن أحمد المتوفى سنة (175 (هـ وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة (215) هـ وهو أكثر أخذا عن أهل البادية.

استمر الرواة يرحلون إلى البادية إلى أواخر القرن الرابع ثم شيبت لغة أهل البادية باللحن وكانت اللغة قد ضبطت ودونت فلم يعد من حاجة إلى الرحلة إلى البادية.

ثم أن العرب لما رأوا اهتمام الناس بالأخذ عنهم صار بعضهم يرد إلى الأمصار فيتلقاه الرواة ويأخذون عنه وأول من فعل ذلك أبو مسجل الأعرابي فإنه قدم من البادية وأخذ النحو عن الكسائي المتوفي سنة (189) هـ وروى شعرا كثيرا من الشواهد عن علي بن المبارك ثم صنف في الغريب.

وأول خطوة يقوم بها من يريد تحقيق كتاب ما، هي السعي إلى الحصول على نسخة، ويقتضي المنهج الحديث للتحقيق الحصول على جميع نسخ الكتاب المحفوظة والمطبوعة في كثير من الأحيان، ويقنع المرء بما استطاع الحصول عليه من مخطوطات. وكان هدا الأمر

مألوفا عند أسلافنا فالبخاري وجاب أقطار العالم الإسلامي سعياً وراء الأحاديث. و روي أن أحد المحدثين رحل من الحجاز إلى مصر من أجل حديث واحد. ويشترط المحدثون في المحقق الأمانة المطلقة التي تلزمه بالنص الذي اتخذه أصلاً للتحقيق

وكذلك أوصى المحققون الأولون بالأمانة . قال العلموي:"لا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه وهذا محله في غير القرآن فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً فليصلحه"(5).

وقال القاضي عياض يصف تقاليد العلماء المسلمين في ذلك:"الذي استمر عليه عمل أكثر الأشياخ في نقل الرواية كما وصلت إليهم وسمعوها، ولا يغيرونها في كتبهم، حتى طردوا ذلك في كلمات من القرآن استمرت الرواية في الكتب عنها، بخلاف التلاوة المجمع عليها. لكن أهل الكوفة منهم ينبهون على خطئها عند السماع والقراءة وفي حواشي الكتب، ويقرءون ما في الأصول على ما بلغهم. ومنهم من يجسر

على الإصلاح وكان أجرؤهم على هذا من المتأخرين القاضي أبو وليد الوقش(6)

الإحالات:

(1)المزهر 48/1.

(2)نشأة التدوين التاريخي، د. حسين نصار، المكتبة العربية، القاهرة، 1983، ص81.

(3)نشأة التدوين التاريخي، د. حسين نصار، المكتبة العربية، القاهرة، 1983، ص10–12.

(4)نشأة التدوين التاريخي، د. حسين نصار، المكتبة العربية، القاهرة،1983 ، ص50–53 –56–59

(5)المعيد في أدب المستفيد ص 131 .

(6)مقدمة ابن صلاح ص 238.

.....